

العولمة مظاهرها وتداعياتها.. نقد وتقييم



إنّ تخطي الغرب الأوروبي الحديث أزمت العصور الوسطى وامتلاكه شروط النهضة وأسباب القوّة والتقدم جعله يبني حضارة قوّة تقوم على الحرية والعلم والتكنولوجيا، هذه الحضارة مكّنته من الوصول إلى درجة عالية من الازدهار الاقتصادي والرفاهة المادية، ذلك لكثرة الإنتاج الصناعي وتنوعه وازدهار حركة التسويق والتجارة، وكان ذلك بفعل تطور وسائل النقل والاتصال، الحالة الجديدة التي عرفتتها شعوب أوروبا الحديثة وكذلك شعوب الولايات المتحدة الأمريكية غيرت مجرى الحياة لدى شعوب العالم أجمع، بفعل انتقال منتجات الحضارة الغربية الفكرية والعلمية والتكنولوجية وغيرها إلى تلك الشعوب مع حرص الغرب على ذلك، وفي خضمّ النماء الاقتصادي والازدهار العلمي والتكنولوجي الغربي تنامت العديد من التحولات والتوجهات، وارتبطت بالوعي التاريخي وبظروفه الفكرية والمادية، ومن أبرز هذه التحولات توجّه العولمة، الذي ارتبط بمفاهيم عدّة قام عليها الفكر الغربي الحديث، مثل الحرية، العقلانية، الليبرالية، العلمية، العلمانية والحدّات والتحديث وغيرها، هذه المفاهيم في إطار الظروف التاريخية للغرب الحديث ومصالحه قامت بأدلجة العولمة حيث نشأت ونمت الظاهرة وأصبحت موضوعاً يشغل الجميع، يشغل الغرب الذي يسعى إلى بسط سلطانه ونفوذه على العالم ودنياه بقوّةته وحضارته المركزية ومن دون منافس، ويشغل الجهات الأخرى من العالم لحاجتها إلى التنمية وهي تفتقر إلى شروطها وتوجد في

شغلت العولمة دنيا العالم باعتبارها ظاهرة جديدة ارتبطت بما أحدثته الثورة الصناعية من تطور هائل فمن الطاقة البخارية والميكانيكية إلى الطاقة البترولية ثم الطاقة الكهربائية والشمسية إلى الطاقة الذرية والنووية والالكترونية، وكان للغرب الحديث أن يؤدج هذا التحوّل الصناعي الذي يحتكره، ويقدمه في صورة عولمة تغزو العالم بالحدّات والتحديث وبايديولوجية جديدة هي الليبرالية الغربية، وتباينت الفهوم والمواقف بين مثقفي الغرب والمثقفين خارج الغرب، بين مؤيد ومعارض، بين من يعتبرها حقيقة ثابتة وحتمية تاريخية مثل أيّة حتمية طبيعية، اشتراطتها التحولات الحضارية الجارية وحاجتها إلى تعميم استعمالها لدى كل شعوب العالم، وهو أمر طبيعي وحتمي لا مفر منه، وبالتالي فهي ضرورة حضارية ومكسب إنساني. وبين من يعدّها أحد أشكال الهيمنة الغربية الجديدة التي تعكس بجلاء اتجاه النزعة المركزية الأوروبية الحديثة، الهدف منها الالتفاف على العالم ومن حول كافة شعوبه وجهاته، لتسليط النفوذ الغربي عليه ونهب خيراته وثرواته، وإحكام الطوق عليه واستغلاله طبيعياً وسياسياً واقتصادياً وبشرياً، وهذا من منطلق الشعور بالعظمة والاستعلاء والاستكبار، والرغبة في التسلط والتعسف، وفرض إرادة القويّ وهيمنته، والعنصر الأبيض أفضل من غيره وهو أحقّ بالمدينة والتحضر، وغيره كُتِب عليه التوحش والتخلف وخدمة الأبيض الذي يستعبده إلى أقصى درجة وبدون مشفقة. أمّا عن الإشكالية البحث فهي كالآتي: ما مدلول العولمة؟ لماذا اتجه العالم المعاصر صوب العولمة؟ ما هي مظاهر وتداعيات العولمة على العالم المعاصر من منطلق المركز والأطراف في مجالات: الفكر والثقافة والسياسة والاقتصاد والاجتماع والعسكر والإعلام والإيديولوجيا والعقيدة وغيرها؟ كيف كان تأثير العولمة من حيث المظاهر والتداعيات على بلدان الأطراف وشعوبها بصفة عامة وشعوب العالم العربي والإسلامي بصفة خاصة؟. والإجابة عن إشكالية استدعت تبني البحث الخطة التالية:

1- مدلول العولمة

2- دواعي اتجاه العالم صوب العولمة

3- مظاهر العولمة: ثقافيا - سياسيا - اقتصاديا - عسكريا - إعلاميا

اجتماعيا.

4 تداعيات العولمة

أ- على مستوى الثقافة والفكر

ب- على المستوى السياسي

ج- على المستوى الاقتصادي

د- على المستوى الأمني والعسكري

هـ- البعد العقائدي للعولمة وتداعياته:

1- التطرف الإيديولوجي الليبرالي

2- البعد التنصيري أساليبه ومطامحه

3- الصهيونية والعولمة وأثارها .

4- العولمة دين جديد

إنّ البحث في موضوع العولمة مجاله واسع، قضاياها متعددة ومتداخلة ومتشابكة ومعقدة، يصعب الإلمام بها دفعة واحدة وفي وقت قصير، وإذا تمّ تجاوز قضية مدلول العولمة لغويا، فإنّ إيجاد المعنى الاصطلاحي لها ليس بالأمر اليسير، ذلك لتباين الرؤى في تصورها بين الأنصار والخصوم والمعتدلين الموضوعيين، فهناك تمايز بين رأي صانعيها وحمايتها وموقف الذين اكتتوا بنيرانها واتجاه الذين وقفوا منها موقفا وسطا، فحمايتها هم الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها في الغرب الأوربي وفي غيره، أما خصومها فهم سائر الشعوب التي تعاني ويلات العولمة في مختلف جوانب الحياة، ويبقى أصحاب الموقف الوسط في كل أنحاء العالم، وهم كل من يعدد سلبياتها وإيجابياتها ويدعو إلى تكييفها من جهة المركز والأطراف لتخدم مصالح الأغنياء والفقراء معا، وفي أتون هذا التباين في التصورات لحقيقة العولمة، وبغض النظر عن سلبياتها وإيجابياتها، فهي توجه وإيديولوجية ونظام وعقيدة القوى الكبرى في العالم، قوى المركز تبنتها وتعمل على نشرها وتعميمها على كل بلدان العالم وشعوبها من غير استثناء، ليصبح العالم كوكبة واحدة، وكل سكانه منضمين في بوتقة واحدة، وتحت راية واحدة، ويعيشون في ظل نظام واحد تسيطر عليه دول المركز وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية، والعولمة تعني انتشار هوية المركز وثقافته ونظامه الاقتصادي والسياسي والعسكري وغيره، وانصهار كل الهويات والخصوصيات والدول الوطنية والقومية وكل الأشياء المحلية فيما هو مركزي، فالعولمة تحوّل من الخاص إلى العام ومن المحلي إلى العالمي ومن الخصوصي إلى الكوني ومن الوطني والقومي إلى الإنساني الشمولي العام في الفكر والسلوك والوجدان، فالعولمة تعني لا حدود ثقافية أو سياسية أو جغرافية في العالم، ولا كيانات أو تكتلات سياسية أو اقتصادية أو ثقافية إلا في حدود العولمة وتحت سيطرة المركز وبقيادة الولايات المتحدة الأمريكية.

ارتبط ظهور العولمة بعوامل شتى، ارتبطت هذه العوامل بالنهضة الأوربية والحضارة الحديثة، وتمثلت في الإصلاح الديني والسياسي والاجتماعي والتربوي، وفي التقدم العلمي والتكنولوجي والثورة الصناعية، وفي الازدهار الاقتصادي والرأسمالية، وفي الديمقراطية الليبرالية، وفي تطور وسائل الإعلام والاتصال والإشهار والمعلوماتية التي غيرت مسار تاريخ الإنسانية المعرفي والحياتي بصفة عامة، الأوضاع الجديدة وفي ظل التطور التكنولوجي المتنامي والمتزايد باستمرار خاصة في نظام المعلوماتية فتح آفاقا واسعة أمام دول ومجتمعات الغرب الأوربي والولايات المتحدة الأمريكية، وهي أكثر الدول استفادة من الحربين العالميتين الأولى والثانية، التي توجت بالسيطرة على العالم بمعية حلفائها علميا وتكنولوجيا وسياسيا واقتصاديا وثقافيا وإعلاميا وعسكريا، وفرضت هيمنتها وسلطتها على العالم أجمع، وفرضت العولمة والنظام العالمي ورفعت شعارات كثيرة تدعو إلى الكونية أو الكوكبية كما تريدها هي

وبحسب مصالحها الإستراتيجية، شعار الحرية والديمقراطية والتعددية السياسية، وشعار حقوق الإنسان، وشعار الأمن والسلم في العالم، وشعار نقل التكنولوجيا للجميع، وشعار الحد من التسلح ومنع أسلحة الدمار الشامل، وشعار المحافظة على البيئة والأرض وغيرها كثير، لكن ممارسات العولمة في الواقع جعلت من الشعارات مجرد أوهام وخيالات، وجاءت مظاهر العولمة وتداعياتها تدل على التناقض الصريح المفضوح بين الوعود والواقع وبين الخطاب والممارسة وبين القول والفعل، فالعولمة تخدم الكبار في العالم ولا مكان في ساحتها للضعفاء، فهي تكيل بمكيالين الأول خاص بالمركز والثاني خاص بالأطراف، وتقودها إيديولوجية تستمد منظورها من منظور النزعة المركزية الأوروبية ومن عقائد الحركة الصهيونية وصنوها الماسونية في العالم ومن مطامح أصحاب المال والأعمال في العالم، لأن العالم في ظل العولمة صارت توجهه الشركات الاقتصادية المتعددة الجنسية والعابرة للقارات والمؤسسات المالية العالمية التي تسيّرُها دول المركز، وهي صندوق النقد الدولي والبنك العالمي والمنظمة العالمية للتجارة، الأمر الذي عمّق أزمة العولمة المادية والأخلاقية، لم يكن تأثيرها على العالم الثالث فحسب بل على مجتمعات العالم المتقدم كذلك، فهي أزمة خطاب وممارسة أولا، وأزمة مادة وروح ثانيا، غاب في ظل العولمة التوازن المطلوب في الإنسان بين جميع حاجاته ومطالبه الروحية والمادية، كما انتفى التكافؤ الضروري في المجتمع الدولي بين الأغنياء والفقراء لضمان للأمن والاستقرار في العالم، نجد واحد من خمسة "خمس" من سكان العالم يسيطرون على أكثر من ثمانين بالمائة من الناتج العالمي، وتقوم القوى المهيمنة باستغلال الطاقات البشرية والثروات الطبيعية للشعوب الضعيفة وبردع وتأديب أيّة جهة تخرج عن العولمة.

تستند العولمة ومن ورائها القوى المهيمنة وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية في تنفيذ مخططاتها الخطيرة ذات التداعيات والانعكاسات الوخيمة على العالم عامة وعلى العالم النامي بصفة خاصة، إلى مجموعة من الآليات هي التي مكنتها من التوسع والانتشار والهيمنة، بعضها تاريخي ارتبط بنتائج وإفرازات النهضة الأوروبية الحديثة، وتمثل ذلك في قيم ودلالات الحداثة التي أنقذت أوروبا من التخلف والانحطاط وجعلتها تعيش نور العلم والحضارة والازدهار الاجتماعي، ومن نتائج هذا النهوض الحضاري الأوروبي الاستعمار الغربي الحديث لشعوب العالم وممارسته أبشع الجرائم في حقها، والعولمة شكل من أشكال الاستعمار ووجه من أوجهه، ومن الدعائم التاريخية للعولمة نتائج الحربين الأولى والثانية، وما منحت من قوة وغلبة للولايات المتحدة الأمريكية وللدول الغربية وللرأسمالية في العالم وللثقافة الغربية التي انتشرت عبر مختلف أنحاء العالم في جو الاستقطاب والحرب الباردة وفي مواجهة المد الشيوعي الذي كان يهدد الليبرالية والمعسكر الغربي، أما من الناحية السياسية فقد اعتمدت العولمة على آلية الديمقراطية باعتبارها إيديولوجيا وآليات وتنظيما سياسيا، وأدخلت الديمقراطية الليبرالية في النظام الرأسمالي والحياة الاقتصادية مما زاد الأزمة تفاقمًا واعتمدت على ذلك في التوسع من خلال الاستثمارات التي تقوم بها الشركات العالمية المتعددة الجنسية، ومن خلال صلاحيات

المؤسسات النقدية الدولية، وتحويل كل مناطق العالم إلى أسواق حرة للتبادل والمنافسة فيها شرسة من غير النظر إلى عجز الدول الضعيفة عن الدخول في هذه المنافسة الأمر الذي عمّق تخلف الشعوب المقهورة والتحقت بها شعوب كانت في طريق النهوض والتنمية.

لم تلجأ العولمة إلى الآليات السلمية وحدها لفرض هيمنة النظام العالمي والدول الكبرى في العالم، بل استعملت الشرعية الدولية متمثلة في هيئة الأمم المتحدة وسائر فروعها السياسية والاقتصادية والثقافية والعسكرية، كما استعملت القوة العسكرية لحلف الناتو، باعتبار الدول الأعضاء في حلف الأطلسي تمثل المركز في العالم، أما بقية الدول الأخرى فهي في الأطراف، وتحولت وظيفة حلف الناتو من حلف أُنشأ لمواجهة حلف "وارسو" في عصر الاستقطاب والحرب الباردة إلى حماية العولمة، وردع أية قوة في العالم تقف في وجهها، خاصة وأنّ حلف الأطلسي يملك أقوى ترسانة حربية، إلى جانب القوة العسكرية الأمريكية التي تعمل إلى جانب قوة حلف "الناتو" وتُسخّر للدفاع عن العولمة ونشرها بقوة الحديد والنار ومن دون اعتبار للتنوع الثقافي والديني والطبيعي والجغرافي وغيره لدى الشعوب، ومن وراء هذه الآليات جميعا تعمل كل من الحركة التنصيرية والحركة الصهيونية العالمية على دعم العولمة، فإذا كانت الحركة الصهيونية تعمل في الخفاء وفي انغلاق لأنها لا تكشف عن مخططاتها القذرة وعملها في العلنية يقضي عليها لخطورته على الإنسانية، فإن التنصير على أشده في السر والعلن يمارسه الجميع، العمالة الفنية الأجنبية، المنظمات الخيرية، والجيش وبأساليب ووسائل عديدة. ولكن رغم قوة العولمة وقوة آلياتها فإن ذلك لم يثن الشعوب عن تمسكها بثقافتها وتراثها وتاريخها المجيد، ولم تنصهر في الكوكبية كما كان ينتظر رعاة العولمة، خاصة الشعوب التراثية التي مازال فيها التراث حيًّا في وعيها ووجدانها وفي سلوكها وممارساتها، وهي تدفع ثمن ارتباطها الوطيد بهويتها بتعرضها للعزل والعدوان.

من الشعوب التراثية التاريخية الشعوب العربية والإسلامية، التي لم تستطع العولمة صهر هويتها أو تطهيرها، رغم كل الممارسات التي تقوم بها قوى مختلفة وعلى مستويات عديدة وبأساليب مشروعة وغير مشروعة، لأنّ هذه الشعوب لا تملك إمكانات العولمة والنظام العالمي بل مسلحة بثقافة عريقة متجذرة في التاريخ وبإيمان قوي وراسخ بالله وبدينه الذي أنزله على نبيه وارتضاه لعباده ولفّه بعنايته وحفظه، إنّه الإسلام الذي وقف في وجه هيمنة العولمة وطغيانها، يكشف عن فساد أصولها ومراجعها، ويميط اللثام عن قيّمها الدنيا الوضيعة وعن عدم توازنها واختلالها، ويفضح أساليبها ومخططاتها ووسائلها الفاسدة التي تستهدف حفظ مصالح قوى الاستكبار والاستعلاء والغطرسة وقهر الآخرين من دون مشقة أو مرحة، ويعارض أهدافها ومطامحها التي تكرّس إرادة الهيمنة وحب التسلط على الآخر وقهره كما قهره بالأمس الاستعمار الحديث، والعولمة هي شكل من أشكال الاستعمار يمارس القهر والعدوان بمختلف صنوفه. يعارض الإسلام العولمة والأمركة والنظام العالمي في الفكر والممارسة، بما ينطوي عليه من قيم ومعاني تحفظ للوجود الإنساني الفردي والاجتماعي والعالمي حياته وكرامته وتوازنه، توازن بين المادة والروح،

بين الفرد والجماعة، بين العقل والوحي، بين الدين والدنيا، بين الأخلاق والاقتصاد، بين النظر والعمل، بين المقدس واللامقدس، بين الإنسان والإنسان، إنسان الخلافة والرسالة، لا إنسان المال والأعمال والمادية المفرطة والعلمانية المختلة والرأسمالية الفاسدة والديمقراطية الليبرالية المشبوهة، لا إنسان الغريزة والشهوة والخلاعة والإباحية الجنسية، إنسان يحيا في البهيمية ويموت ميتة حيوانية.

لما كانت العولمة بالشكل الذي أراده الغرب الأوربي الأمريكي تُشكل وضعا خطيرا لا يمكن تجاهله، هذا الوضع يشق طريقه نحو المستقبل ويتحكم فيه، هذا لا يمنع إمكانية تهذيب العولمة وتطويرها وترشيدها بالتوجه نحو نماذج وأنماط تبتعد عن التوحش وهيمنة القوى العظمى لفائدة عولمة مؤنسنة تراعي مصالح الجميع. ففعل أنسنة العولمة يقتضي من جميع الدول وشعوبها بما في ذلك الدول العظمى احترام المبادئ والغايات التي لأجلها تأسست المنظمات الدولية والهيئات العالمية، وهي مبادئ تحافظ على حقوق الإنسان والسلم المدني والأمن العالمي وتحد من السباق نحو التسلح ونزع أسلحة الدمار الشامل وغيرها. إنَّ ارتباط العولمة بالتفوق العلمي والتكنولوجي في الغرب الأوربي والأمريكي ونفوذ النموذج الليبرالي سياسيا واقتصاديا وعسكريا لا يعني تفويض دور الدولة الوطنية والقومية كما يريد الغرب، بل يمكن الاستفادة سائر الدول والشعوب من التقدم العلمي والتكنولوجي ومن النموذج الليبرالي دون التخلي عن خصوصيتها الثقافية والتاريخية والحضارية، خاصة إذا كانت الشعوب تاريخية تراثية مثل الشعوب العربية والإسلامية. فسبيل أنسنة العولمة وتخليصها من التوحش يستلزم الاحتكام إلى نظام إنساني يحترم القيم الإنسانية والمبادئ الأخلاقية من عدل ومساواة وأخوة وتعاون وتكافل وغيرها، كما يحترم التنوع الثقافي والتعدد الديني والمذهبي ويحارب الظلم والقهر والاستبداد والاستبعاد. العولمة المتوحشة التي يفرضها العالم المتقدم لا تجلب إلا التوتر وفساد العلاقات بين الدول والشعوب ولا تنتج إلا الكراهية والبغضاء والفتن والحروب وسقوط الجميع في الانحرافات التي تُفقد البشرية إنسانيتها، ولا تكون العولمة صالحة إلا بالتشبع بالقيم الإنسانية والأخلاقية واحترام الآخر في ثقافته وأفكاره ودينه وفي جميع حقوقه، ويُصبح ذلك واقعا مجسدا وعالما مشخصا ثقافة وفكرا وسلوكا وحضارة.

إنَّ التاريخ لم ينته كما تذهب أطروحة نهاية التاريخ وخاتم البشر، ولا الثقافات انصهرت في سياق الصدام الحضاري، فالتاريخ في حراك بدأب وديدان، والثقافات شامخة لم تهتز في وجه رياح العولمة والأمركة، وسلطة المركز لم تحل محل الدولة الوطنية والقومية المستقلة في الأطراف، وحقوق الإنسان التي ينادي بها الآخر في العالم هي جزء من أعمال التحرر والتنمية، ومن غايات الإسلام ومراميه قبل العولمة ومنذ أكثر من أربعة عشر قرنا، والتنوع الطائفي والثقافي والمذهبي من أشكال التعددية تعيش في إطار المساواة فيما للمواطنين وما يلزمهم من حقوق في وطنهم. من التحديات الفعلية الواجب على الدولة الوطنية التاريخية التراثية -دول العالم العربي والإسلامي- إدراكها نصج الوعي التاريخي الراهن الخاص واكتماله وربطه بالماضي، واستيعاب مرحلة الإبداع الأولى في عز الحضارة الإسلامية ووعي مرحلة محاولات النهوض الحضاري في العصر الحديث وإدراك مرحلة التنمية الراهنة والتحرر الجاري في

إطار وطني وإقليمي، إطار يتم فيه الإبداع وتتبلور المفاهيم والتصورات والرؤى والمناهج والغايات الخاصة من دون السقوط في أحضان العولمة والأمركة واعتبارهما ضرورة تاريخية كما يروج لذلك حماة الكونية ودعاة الكوكبية. إنَّ وصول عالم الأطراف إلى فرض الاستقطاب في معارك العولمة يستدعي "منولوجات" عميقة وإعادة بناء الذات بالحوار دوماً وبالنقد الذاتي وحشد القوى وتجميعها بعيداً عن التطرف ومنطق الإقصاء، ففي العالم العربي والإسلامي يحتاج الأمر إلى التوحد في جبهة تأخذ على عاتقها العمل من أجل تحقيق المشروع القومي العربي الإسلامي، المشروع الذي تنتفي فيه الاختلافات المدمرة لكل أمل في التوحد والنهوض والتحضر، مشروع يتجسد في الميدان، يحافظ على الذات ويصنع التنمية ويحقق الوحدة ويضمن الديمقراطية والعدالة، ويحرر الأرض-أرض فلسطين- من الاحتلال، وهذا من شأنه يقضي على الهروب من الوطن داخل الوطن بالحراك في مسار اليأس والقنوط واللامبالاة ونتائج ذلك وخيمة، كما يمنع الفرار نحو الخارج المفضي إلى الموت المحتم في الطريق أو خدمة العولمة.

المؤلف في سطور:

الدكتور جيلالي بوبكر من مواليد عام 1962 بأبي الحسن، ولاية الشلف، بالجزائر. أستاذ بالتعليم الثانوي ومفتش التربية الوطنية سابقاً، أستاذ الفلسفة بجامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف بالجزائر حالياً، حاصل على شهادة الماجستير تخصص فلسفة الحضارة، وعلى شهادة الدكتوراه تخصص فكر عربي إسلامي معاصر. يشتغل بالبحث في قضايا التربية والتعليم، وفي إشكاليات الفكر والثقافة والفلسفة في الواقع العربي والإسلامي المعاصر. من مؤلفاته كتاب العولمة مظاهرها وتداعياتها نقد وتقييم، وكتاب العولمة العقيدة وفلسفة النهايات، وكتاب التراث والتجديد بين قديم الماضي ورهانات الحاضر، وكتاب الإصلاح والتجديد الحضاري لدى محمد إقبال ومالك بن نبي بين النظرة الصوفية والتفسير العلمي، وكتاب إستراتيجية البناء الحضاري عند مالك بن نبي، وكتاب الإصلاح ونظرية الحضارة في فلسفة محمد إقبال، وكتاب أصول الفقه في الفكر الإسلامي الحديث والمعاصر ترديد أم تجديد، وكتاب "من النص إلى الواقع" مُصنّف أُصولي معاصر بين حاجات التراث وتحديات العصر، وله مؤلفات أخرى تحت الطبع.